الدرس الثالث

توحيد الربوبية: الأدلة العقلية

التوحيد وأنواعه

التوحيد تفعيل من الوحدة، وهو جعل الشيء واحداً، والمقصود بتوحيد الله تعالى اعتقاد أنه تعالى واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، فلا يشاركه فيها أحد ولا يشبهه فيها أحد.

فتوحيد الربوبية يعني تفريد الله تعالى في الخلق والإيجاد، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[1] ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾[2].

وتوحيد الألوهية يعني تفريد الله تعالى في العبادة وهي الأمر والنهي أي في التشريع والتقنين للخلق، وفي ذلك يقول تعالى ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾[3] ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[4].

وتوحيد الأسماء والصفات يعني تفريد الله تعالى في الأسماء الحسنى والصفات العلا، بحيث لا يثبت لغيره نظيرها على نحو ما هي ثابتة له، لقوله تعالى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[5]، وفي ذلك يقول تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[6] ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾[7] ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾[8].

وهذه الأنواع الثلاثة من التوحيد لا ينفك بعضها عن بعض، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، لأنه ما دام الله تعالى هو الخالق فيجب عقلاً أن يكون هو الآمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾[9] فكما أن مصنع السيارة مثلاً هو الذي يستحق وضع

---

(١) الزمر آية ٦٢.
(٢) فاطر آية ٣.
(٣) الصافات آية ٤.
(٤) البقرة آية ٢٥٥.
(٥) الشورى آية ١١.
(٦) الأعراف آية ١٨٠.
(٧) مريم آية ٦٥.
(٨) الإخلاص آية ٤.
(٩) الأعراف آية ٥٤.

«المرشد الميكانيكي» لها دون سواه لأنه أعرف بدقائق وحقائق مصنوعاته، كذلك الله تعالى الذي هو خالق كل شيء ومن جملة ذلك الإنسان، هو الذي يستحق وضع التشريع للإنسان دون سواه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1] وتوحيد الربوبية والألوهية يستلزم توحيد الأسماء والصفات، لأن مخلوقاته كلها موصوفة بالتمام والإتقان ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2] ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[3] ولا يصدر الكمال إلاّ عن كامل.

وإنما جرى تقسيم التوحيد إلى هذه الأنواع الثلاثة تيسيراً على الدارس وتسهيلاً عليه، كما جرى تقسيم مادة الفقه إلى فقه عبادات وفقه معاملات وفقه أحوال شخصية وفقه جنايات، وكلها داخل ضمن العبادة لأنها قضايا أمر الله تعالى بها.

أهمية التوحيد:

إن لتوحيد الله تعالى أثراً على الإنسان في الدنيا وفي الآخرة.

أما أثر التوحيد في الدنيا: فإن له أهمية كبرى في حياة الفرد والمجتمع والبيئة.

أما أثره في الفرد: فإنه يورثه اطمئناناً في نفسه وسعادة فيها، لأنه يتجه في الطاعة إلى جهة واحدة، وهو الله تعالى لأن من تعدد الآمرون له فإنه يصاب بالاضطراب الذي يؤدي به إلى الشقاء، بسبب تعارض الأوامر، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

فيكون توحيد الله تعالى في الإنسان له أثر كبير على الفرد فيوفر له الأمن والطمأنينة كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[5].

---

(١) الملك آية ١٤.
(٢) النمل آية ٨٨.
(٣) السجدة آية ٧.
(٤) الزمر آية ٢٩.
(٥) الأنعام آية ٨٢.

وأما أثر التوحيد في المجتمع: فإن الإنسان اجتماعي بطبعه وكلما كثر الناس في المجتمع كلما تداخلت علاقاتهم وتضاربت مصالحهم، فإذا كانت جهة التشريع عندهم واحدة، فإن ذلك يجمعهم على اتجاه واحد، في حين أنه إذا تعددت جهة التشريع فيهم فإن كل فئة سيكون لها توجه يختلف عن غيرها اختلافاً كلياً أو جزئياً، ويتسبب ذلك التعدد في تفكيك عرى المجتمع وتقطيع الروابط فيه، ويجرهم إلى النزاع والصراع، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(١).

وأما أثر التوحيد على البيئة: فإن الله تعالى خلق الكون بكلمته الكونية التي يقول فيها للشيء كن فيكون ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٢) وقد شاء الله تعالى أن يجعل إرادة الإنسان حرة ليتوجه إليه أمر حمل الأمانة، التي هي التكاليف الشرعية، فمن عمل بمقتضى الكلمة الشرعية انسجم بذلك مع الكون من حوله فيورثه ذلك أمناً وسلامة وبركة وعطاء من الله تعالى، ومن خالف مقتضى الكلمة الشرعية فلم يعمل بها، تصادم سلوكه مع الكون المحيط به، والتصادم يورث الخراب والفساد ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾(٣) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾(٤).

فتكون كلمة الله تعالى الشرعية في البشر بمنزلة الروح في البدن، وقد سماها الله تعالى روحاً ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾(٥) فمتى كانت الروح في البدن حصل فيه النمو والانسجام، ومتى فارقت الروح البدن توقف النمو فيه وفسد، كذلك الكلمة الشرعية في الأرض بمثابة الروح في البدن، متى كانت معمولاً بها في الأرض ورثت البيئة خيراً كثيراً وعطاء كبيراً، ومتى توقف العمل بها في الأرض وفارقت أهلها ورثت البيئة خراباً كبيراً وفساداً عريضاً، وهو الذي سيحصل في آخر

(١) الأنفال آية ٤٦.
(٢) النحل آية ٤٠.
(٣) طه آية ١٢٤.
(٤) النحل ١١٢.
(٥) الشورى آية ٥٢.

الزمان حيث يتهدّم نظام الكون عندما يُفقد الإيمان بالله والعمل الصالح بين الناس بصورة كاملة وتامة، كما قال ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله)[1] وقال أيضاً (لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق)[2].

فكان من الأهمية بمكان معرفة توحيد الله تعالى في ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته لما له من أثر في الدنيا على الفرد والمجتمع والبيئة.

وأما أثر التوحيد في الآخرة: فإنه الطريق الموصل إلى الجنة ابتداء وانتهاء فإنه لو عاقب الله تعالى المؤمن على معاصيه التي مات ولم يتب منها بنار جهنم فإنه يخرج منها في نهاية المطاف ما دام أنه قد اجتنب الشرك بالله تعالى، لأن الشرك لا يغفر لمن مات عليه ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[3] وفي الحديث (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله)[4].

توحيد الربوبية

ثمة خمسة أدلة على إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته في الخلق والإيجاد وهي: دليل الإلزام والإمكان والتغير والسببية والإتقان[5]، وسنفرد الأخير بدرس خاص لطوله.

الدليل الأول: الإلزام العقلي

مضمونه: ـ أن الوجود والعدم نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان إذا وجد أحدهما انتفى الآخر.

---

(١) رواه مسلم عن أنس مرفوعاً. انظر مختصر مسلم للمنذري ح ٢ ص ٢٩٥ كتاب الفتن. باب لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله. رقم الحديث ٢٠٢٠.

(٢) نفس المصدر. رقم الحديث ٢٠٢٢.

(٣) المائدة آية ٧٢.

(٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس مرفوعاً. انظر كشف الخفاء ح ٢ ص ٥٤٩ رقم الحديث ٣٢٢٨.

(٥) انظر مجمل هذه الأدلة في: العقيدة الإسلامية وأسسها ص ١٢٧.

ولنفرض أن العدم هو الأصل ويجاب على ذلك: بأن العقل يتساءل؛ هذا الوجود المتقن كيف تحول من العدم إلى الوجود لو كان أصله العدم؟ فلا بد من مرجح لأحد الاحتمالين وإلا فهو الخروج عن مقتضى العقل البشري، لأن العدم حالة سلبية لا يصح أن ينبثق عنها هذا الوجود وإذا بطل أن يكون العدم هو الأصل صح نقيضه وهو أن الأصل هو الوجود ثم انبثق عنه هذا الكون.

ومتى ثبت أن الوجود هو الأصل فإنه لا بداية له، لأنه لو كانت له بداية لكان مسبوقاً بالعدم، وقد أثبتنا أن الوجود هو الأصل لأنه يؤثر في غيره ولا كذلك العدم.

ومتى ثبت أنه لا بداية له فقد ثبت أنه لا نهاية له، لأن ما لا بداية له لا نهاية له، كما أن ماله بداية فإنه له نهاية.

ولهذا يعبر عن وجود الله تعالى بالوجود المطلق. وقد ورد في الحديث: «اللهم أنت الأول فلا شيء قبلك وأنت الآخر فلا شيء بعدك»[1]، ولمّا ثبت أن ذات ما يخطر في البال الأصل فيه الوجود [وهو الله تعالى] ثبت نقيضه لما عداه، فيكون الأصل في المخلوقات العدم ثم وجدت بقوّة الله تعالى، وبالتالي فإن لها بداية، وما كان له بداية فإن له نهاية. وهي المسماة في الشرع بقيام الساعة

الدليل الثاني: الإمكان العقلي

مضمونه: - إيراد احتمالات كثيرة على الأحوال القائمة ثم التساؤل عن سبب تخصيصها بممكن واحد دون غيره وهو الحال التي هي عليه الآن، وسيكون الجواب عند أهل الاختصاص: أن الحكمة اقتضت ذلك، ويكون جوابنا: الحكمة صفة تحتاج إلى موصوف تقوم به وهو الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾[2].

---

(١) رواه ابن شيبة ومسلم والترمذي والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً بألفاظ قريبة منه، انظر فتح القدير للشوكاني ح ٥ ص ١٦٦ عند تفسير قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ من سورة الحديد آية ٣.

(٢) الحديد آية ١.

وجملة الدليل: أننا نورد على العوالم القائمة إيرادات كثيرة فنقول مثلاً:

إن عالم الفلك يتكون من نجوم وهي حارة وكواكب وهي باردة فلماذا لم تكن الأجرام الفلكية كلها نجوماً أو كواكباً؟ فيجيب علماء الفلك بأن الحكمة اقتضت ذلك لكي يتم التفاعل الكيماوي في المخلوقات.

كما نورد ممكنات عقلية على عالم النبات فنقول: لماذا لم تكن النباتات كلها بحجم واحد وشكل واحد ولون واحد وجنس واحد؟ سيكون الجواب عند علماء النبات: أن الحكمة اقتضت ذلك ليمكن الاستفادة منها من جهة الإنسان والحيوان، والحكمة صفة تحتاج إلى موصوف تقوم به وهو الله تعالى.

كما نورد احتمالات عقلية على الإنسان فنقول من الممكن عقلاً أن يكون الإنسان على غير هذا التركيب البدني كأن يكون برأسين أو بثلاثة مثلاً، كما نورد مثل ذلك على عالم الحيوان ثم نتساءل: لماذا خص هذا التركيب القائم فيها دون غيره من الممكنات العقلية؟ سيكون الجواب: أن الحكمة اقتضت ذلك لئلا تتضارب الأوامر في البدن، ونقول: الحكمة صفة الحكيم وهو الله تعالى.

وإن من يدعى وجود هذا الكون بطريق الصدفة مع ذلك الاختيار الحكيم للحال القائم دون غيره، فإنه يكون كمن يقول: بأن صندوقاً مليئاً بالحروف المطبعية انقلب من يد صاحبه فتشكلت منه قصيدة في غاية الحكمة والدقة والبلاغة بحيث تستعصي على نقد الناقدين وتفنيد الباحثين، ولا يقول ذلك عاقل من البشر.

الدليل الثالث: دليل التغير

ومعناه التحول من حال إلى حال، ويعتمد هذا الدليل على القاعدة التي تقول: العالم متغير، وكل متغير حادث، فالعالم حادث.

والعالم يطلق على كل ما عدا الله عز وجل، فمنه عالم الجماد ومنه عالم النبات ومنه عالم الحيوان ومنه عالم الفلك، ويشتمل كل عالم من هذه العوالم على أنواع لا حصر لها ولا عد، فلا يعلم مداها ولا عددها إلا الله عز وجل، وهي كلها متغيرة ولكن تغيرها على نوعين:

النوع الأول: ـ تغير بسيط: ـ أي يرى بالعين المجردة كالدورة الفلكية من شروق الشمس وغروبها وكذا القمر. وكالدورة النباتية حيث يتحول النبات من بذرة إلى نبتة إلى ثمار ثم إلى هشيم ثم يعود إلى ما كان عليه بذراً، كما تتحول أجزاؤه إلى عناصرها الأولية.

وكذا الدورة الحيوانية: يتحول الإنسان فيها من حيوان منوي إلى جنين ثم إلى مولود يمر بعدها في حياته: بأدوار مختلفة تنتهي بموته وتحلله إلى عناصره الأولية التي نشأ منها في التراب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[1].

النوع الثاني: ـ تغير مركب: ـ أي لا يرى إلا بالمجاهر والمكبرات كما هو الحال في عالم الذرة حيث تتركب من جزئين: **الأول**: بروتون وهو مركزها والثاني الكترون حيث يدور حول مركز الذرة في نظام محكم[2]، وكالخلية: ـ وهي عبارة عن كيس بداخله مواد أساسية تتكون منها الخلية[3] وتتفاعل هذه المواد مع نواة الخلية لتوفير عنصر الطاقة للبدن الذي يتشكل من مجموع هذه الخلايا، وهذه الخلية لا ترى بالعين المجردة وإنما بواسطة المجاهر والمكبرات.

وجه دلالة التغير على وجود الله تعالى: ـ هو أن التغير دليل نقص في المتغيرات لحاجتها إليه، إذ بدونه تتلف العوالم، فلا يصح أن يصرف شيء من العبادة لشيء منها لنقصها، ومن هنا فقد اتخذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ظاهرة التحول في الكوكب والقمر والشمس دليلاً على عدم استحقاقها للعبادة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ

---

(١) الحج آية ٥.

(٢) انظر موسوعة: بهجة المعرفة ح ١ ص ١١٣.

(٣) نفس المصدر ح ٤ ص ٤٢.

مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾[1]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2].

الدليل الرابع: دليل السببية

السبب في اللغة: ـ هو الشيء الموصل إلى غيره، كالحبل سبب في استخراج الماء من البئر مثلاً. والطائرة سبب في الوصول الى البلاد البعيدة.

وفي الاصطلاح: ـ هو ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم.

مضمون دليل السببية: ـ هو النظر في عوامل الربط بين أجزاء الكون التي تجعله وحدة واحدة.

فالكون يتألف من أربعة عوالم، أصغرها عالم الفلك ثم يليه عالم السموات ثم عالم الكرسي ثم عالم العرش وهو أكبرها على الإطلاق. فعالم الفلك منضبط في ذاته في مجموعاته الفلكية ومرتبط بعالم السموات، وعالم السموات منضبط في ذاته ومرتبط بعالم الكرسي، وعالم الكرسي منضبط في ذاته ومرتبط بعالم العرش. وعالم العرش منضبط في ذاته ومرتبط بخالقه، فكل واحد من هذه العوالم يعتمد على ما فوقه، ثم هي جميعاً مرتبطة بخالق الكون كله الذي يهيمن على كل ذرة فيه قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[3]، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[4]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾[5].

بناء على ذلك تكون حبة القمح مثلاً قد أثر في إيجادها بأمر الله تعالى عالم الفلك وعالم السموات وعالم الكرسي وعالم العرش، وإن كنا لا نعرف كيفية هذا

---

(١) الأنعام آية ٧٨.
(٢) فصلت آية ٣٧.
(٣) الجاثية آية ١٣.
(٤) البقرة آية ٢٥٥.
(٥) التوبة آية ١٢٩.

التأثير على وجه التفصيل.

فارتباط عوالم الكون بعضها ببعض أنتج الحركة والحياة في الكون، كما أن ارتباط أجهزة البدن وخلاياه أنتج فيه الحركة والحياة.

فدليل التغير يعني تتبع حالة الضبط في المخلوقات ودليل السببية يعني تتبع حالة الربط فيما بين هذه المخلوقات.

وبالضبط والربط يصبح الكون وحدة واحدة يدل على وحدانية خالقه سبحانه وتعالى.